Kayseck
Elaz

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi

حسن التوسل الى صناعة الترسل

شهاب الدين محمود الحلبي « ٧٢٥ هـ »

تحقيق ودراسة

اكـرم عثمـان يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الأمة العربية أمة حفلت حياتها بالاعمال المجيدة والصور الرائعة سواء أكان ذلك في هيئة انجازات تحققت على شكل بناء دولة واحدة في وطن واحد وأمة واحدة أم على هيئة انجازات علمية وحضارية •

وايمانا بأصالة الأمة العربية ورسالتها الانسانية التي أدتها وما زالت تؤديها على انها كأمة أبدع أبناؤها في مختلف العلوم والمعارف كتبا وموسوعات وبحوثا وبقيت شاهدة على عظم هذه الامة ومكانتها السامية •

لذا فاني عزمت على أن أشارك مع من شارك من الافاضل الذين سبقوني في بحث التراث العربي للتدليل على ما للامة العربية والشعب العربي من أصالة في العلم والمعرفة والحضارة الانسانية •

فمنذ سني دراستي الجامعية كنت أؤمن ما للنثر الفني على مختلف فروعه من أهمية في حياة الأمة وقت انتفاضاتها وثوراتها وحروبها وفي وقت سلمها وعمرانها •

فكان عليّ أن أختار من كنوز تراثنا العربي كتابا ، أبعث فيه الحياة عن طريق تحقيقه العلمي ونشره ، فاستوقفني كتاب (حسن التوسل الى صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبي المتوفى سنة ٧٢٥هـ) •

اطلعت عليه ، فوجدته ذا فائدة جليلة ، تخدم طالب العلم سواء أكان في حقل البلاغة أم في حقل الانشاء •

فكان أول عملي أن جمعت النسخ الخطية من مختلف المكتبات والتي أشار اليها كارل بروكلمان وجرجي زيدان الى جانب المطبوع منها ، وقد استطعت أن أعثر على نسختين قديمتين لم يذكرهما بروكلمان وجرجي زيدان ، وهما نسختا بغداد وتركيا في مكتبة قايتباي ، وبعدها اعتمدت نسخة كوبرلي الأم وقابلت النسخ ، وثبت اختلاف القراءات في الهامش ثم خرجت الاحاديث النبوية والشعر والنصوص كلاً في مظانه •

وقد بذلت جهدا ـ قدر طاقتي ـ في سبيل أن أخرج الكتاب بشكل علمي يرتاح اليه القاريء • ومما يجب الاشارة اليه أن الكتاب يتألف من ثلاثة أقسام كبيرة :

القسم الاول : والذي اسماه (الامور الكلية) تناول فيه شهاب الدين حاجة الكاتب الى التعلم والتثقف بالقرآن الكريم والحديث النبوي والنحو واللغة والشعر العربي والحكم والامثال والخطب والفصاحة والبلاغة والاحكام السلطانية ، كما طلب من الكاتب أن يكون ذا أخلاق رفيعة حسنة، وان يحسن معاملة الناس ، وان يتعرف على طبيعة المواقف ونفسية من يكتب اليه كي يعطي كل مقام حقه •

القسم الثاني : والذي أسماه (الامور الخاصة) تحدث فيه شهاب الدين عن علم البلاغة باعتباره أهم العلوم العربية بعد معرفة كتاب الله جل شأنه ، لانها عماد ثقافة الكاتب المبتدىء ، فهي التي تصقل ذوقه ، وتجلي ثقافته ، وتحيي تفكيره ، وتبرز شخصيته ، وتخلق أسلوبه في صورة بديعة من الفن والصناعة والجمال والطلاوة •

فقد تناول الفصاحة والبلاغة بفنونها الثلاثة ثم توسع في علم البديع ، فعرض ستة وثمانين فنّاً من فنونه المعروفة في عصره ، فهو يعرّفها ثم يمثل لها بشواهد تطبيقية ، توضح ذلك التعريف بعبارة سهلة واضحة بعيدة عن التكلف والتعقيد ، فقد نظر شهاب الدين للبلاغة بمفهوم تعليمي متوخيا الفائدة من كلتا المدرستين الكلامية والادبية دون التخصص بأحداهما •

القسم الثالث : هو خاص بالحل والاقتباس والاستشهاد برسائله الدواوينية والخاصة • بدأ هذا الفصل بتعريف كل واحد منها مع التمثيل ثم أعقب ذلك مجموعة من الرسائل التي جعلها ميدانا فسيحا التعلم والتطبيق، ولو تأملنا تلك الرسائل لرأيناها بعيدة كل البعد في فنيتها عن رسائل كتاب العصور المتقدمة •

فمما قاله عبدالحميد الكاتب في رسائله مثلا (خير الكلام ما كان لفظه فحلا ومعناه بكرا) ، لا نجد له صدى في رسائل شهاب الدين •

ومما قاله الجاحظ عن الكتّاب انهم : (يحبون البيان والطلاقة والتحبير والرشاقة) لا نجد له أثرا في رسائل شهاب الدين أبدا •

ذلك ان مما يميز هذه الفترة وما سبقها هو التحجر البديعي الذي لازم الرسائل •

لذا فإن شهاب الدين لم يستطع خلاصا من التزامه السجع في جميع رسائله ، وان طلب من المتعلم عدم الالتزام به ، تلك هي طريقة أبي العلاء (لزوم ما لا يلزم) فهو يبني سجعاته لا على حرف واحد بل على حرفين ، وفي هذا كد للذهن ، كما يستنفد من صانعها جهدا وتعبا كبيرين •

وعليه نستطيع القول ان شهاب الدين التزم السجع في رسائله كما التزم الحل والاقتباس والاستشهاد بشكل كبير يدل على مهارته في اللعب بالالفاظ

حتى ينتهي الى الصورة الهندسية والتي يتسم أكثرها بخلو من الجمال والفنية في رأينا المعاصر ، فكل الذي تحويه هو التعقيد حتى اننا نشعر ان التعقيد غاية سعى اليها شهاب الدين ، طبقها في رسائله ، كما طالب الكاتب بالالتزام بهذه الطريقة الملتوية ، والتي أصبحت المقياس الفني لمقدرة الكاتب وبراعته •

ولكننا لا ننكر فنية رسائل شهاب الدين وقيمتها الادبية كل الانكار ، فان فيها بعض السجع الرشيق والترصيع البديع من جهة ، كما كانت لـه القدرة على صوغ الالفاظ والاتساع بها حتى تؤدي صروبا من التوقيع الصوتي والترادف الموسيقي •

أما الاغراض التي ظهرت في رسائله فكثيرة ، منها الأغراض السياسية كرسالته في حث الجيش على الاستماتة والاستبسال في الحرب ليكسب النصر ، ورسالته الاخرى التي وجهها لمن هزم في الحرب يعده بنصر الله والاحتفال بأخذ الثأر ، ورسالة أخرى في ذم المنهزم المتخاذل في الحرب كي يبعث فيه الامل والوقوف ثانية ليكسب النصر ، وتظهر لنا في بعض رسائله السياسية أهمية موضوعها فمنها ما كتب به الى صاحب غرناطة ابن أبي الاحمر والى متملك سيس وشلاش •

كما نجد في رسائله ، رسالة في وصف الطيور والجوارح والخيل ، ورسالة أخرى في وصف البندق يكاد ينفرد بها ، وأخرى في وصف حصن مقلدا فيها القاضي الفاضل ، ورسالة أخرى في الفتوة الى غيرها من الرسائل •

وهكذا نجد على الرغم من ذلك التصنع جوانب فنية وبوارق انسانية يحسن بالكاتب المعاصر ان يطلع عليها ، وعلى ما فيها من جوانب مضيئة تمثل شعور الامة في حياتها ومعاناتها وآمالها •

فنحن اليوم تتطلع الى أساليب جديدة تنقل آمال أمتنا بروح قومية انسانية هادفة بناءة ، وتتطلع الى أدب عربي ينطلق في آفاق عالمية رحبة مبرهنا على اصالة أمتنا وعدالة آمالها المشروعة ونقاء جوهرها ورحابة انسانيتها •

ذلك ان مفهوم النثر الفني المعاصر يختلف عن أساليب النثر في العصور المتأخرة وفي عصر شهاب الدين خاصة ، فالنثر المعاصر يتمثل في المسرحية والرواية والقصة والاقصوصة والمقالة في أسلوبه ومنهجه وأهدافه الا انه يلتقي مع النثر الفني العربي القديم في صحة العبارة وسلامتها وسمو الهدف ونبل المقصد ، على أن يكون كتاب (حسن التوسل) صلة وصل ثقافي بين الماضي والحاضر •

وهكذا فاني بذلت جهدا قدر طاقتي أرجو أن ينال عملي الرضى والقبول ، وان كان رضى الناس غاية لا تدرك ، وحسبي اني بذلت جهدي وأنا في بداية طريق العلم والمعرفة ، وأسأل الله العلي القدير أن يكون كتابي هذا حلقة في سلسلة تاريخ أمتنا العربية المجيدة وهي في سبيل اثبات ذاتها وبعث رسالتها الخالدة ••

اكرم عثمان يوسف
١٩٧٦/١/٢١
١٣٩٦ هـ

الباب الاول

الدراسة